

لماذا كتب العقاد عبقرياته؟

بقلم: غازي التوبة

نشر الدكتور جابر قميحة في عدد سابق من مجلة الأدب الإسلامي مقالاً تحت عنوان «عبقریات العقاد في عيون الناقدین» تعقب فيه بعض الدراسات التي تحدثت عن عبقریات العقاد، وجمع النقد الذي تناولها، فوجد أنه تناولها من ثلاث زوايا هي:

١- الدوافع.

٢- المنهج والطريقة.

٣- المضامين والأفكار، والقضايا والأخبار، والروايات.

الإسلامي. ويؤكد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ، وأحقية كمحرك له، وليطعن في جدوى تنظييات المد الإسلامي الجماعية في العصر الحديث، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب في الإسلام، ويشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص.

وهو اتهام ظاهر الوهن، لأنه حكم على نية خافية لا يعلمها إلا الله، ولم يقدم الكاتب دليلاً على صحة اتهامه^(١).

نقل الدكتور جابر قميحة خلاصة رأيي في عبقریات العقاد، وقدم له عبارات من عنده، وعقب عليه عبارات من عنده أيضاً، أما العبارة التي قدم بها الخلاصة فهي قوله: «وفي نطاق المنهج أيضاً نقرأ أغرب نقد أو اتهام وجه إلى العبقریات» والسؤال الآن: لماذا وصف نقدي بالغرابة؟ كان يمكن أن يكون هذا الوصف فيه شيء من الصحة لو أنني أطلقت حكمي دون تدليل على ما أقول، أما وأنا اجتهدت في التدليل على وجهة نظري، بالنقل من كتب العقاد نفسه، وبالربط بين ماضي الكاتب وحاضره، واستغرق ذلك التدليل أربعين صفحة، كل ذلك كاف لأن يصبح الحكم مألوفاً ومعروفاً وليس غريباً، صحيح أن هناك ربطاً بين أمور قد يظن بعضهم أنه لا ارتباط بينهما، ولكن أليست إحدى مهمات التأليف الربط بين الجوانب التي قد لا تبدو مترابطة لبعض العيون؟

ثم يتبع الدكتور جابر قميحة تلخيصي للموقف من عبقریات العقاد بقوله: «وهو اتهام ظاهر الوهن، لأنه حكم على نية خافية، لا يعلمها إلا الله، ولم يقدم الكاتب دليلاً على صحة اتهامه».

إن النية جزء من باطن الإنسان الذي يرتبط بشكل مؤكد بالظاهر. ويأتي الظاهر في الغالب تعبيراً عن الباطن. فإن كان الإنسان يؤمن في باطنه بأن الله ربه ومليكه، ويؤمن بتعاليم الإسلام، ويؤمن بأن محمداً ﷺ هو رسوله الذي يجب أن يقتدي به، فإنك ستجد ظاهره يتسم بصفات معينة، انطلاقاً من هذا الإيمان الذي يعمر باطنه: ستجده في الظاهر يؤدي الصلوات، ويذهب إلى المسجد، ويؤدي الزكاة في وقتها، ويصوم في رمضان، ويحتفل بعيدي الفطر والأضحى، ويتعد عن أكل الخنزير إلخ.... وستجد أن هذا الظاهر يختلف مع ظاهر النصراني، الذي يتجلى في تعظيم الكنائس، والصلبان وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وهو أمر طبيعي؛ لأن باطن النصراني يقوم على الإيمان بأن المسيح هو الله، وبأن هذه تعليمات المسيح عليه السلام، بل أستطيع أن أجزم بأن هناك اتصالاً

وقد تعرض لكتاب لي نشرته قبل خمسة وعشرين عاماً تقريباً، درست فيه العقاد ضمن المدرسة التاريخية، التي كانت إحدى المدارس التي صفت فيها الفكر الإسلامي آنذاك وأنا قبل أن أتعرض لما كتبه عن وجهة نظري، أحب أن أذكر بعدة أمور:

١- إن أبرز ما تحتاجه المكتبة الإسلامية في وقتنا الحاضر هو تقويم الإنتاج الفكري والعلمي، الذي تنزخر به الساحة، وفرزه وتمييز غثه من ثمينه، وصحيحه من سقيم، ويندرج تحت ذلك تقويم أعمال أعلام النهضة، الذين تركوا أثراً في معاصرتهم وفي الأجيال التالية، إن هذا التقويم السليم سيكون له أثر في تسديد مسيرة العمل الإسلامي، والأرجح أن التقص في التقويم سبب من أسباب القصور في البناء الإسلامي المعاصر.

وانطلاقاً من ذلك فإني أؤمن اجتهد الدكتور جابر قميحة في محاولة رصد الدراسات التي تناولت العبقریات، وأمل أن يكون الحوار والسجال مؤدياً إلى مزيد من النتائج الصحيحة، والتقويم السديد.

٢- إن من أهم الموازين التي يجب أن يخضع لها تقويم أي مفكر، هو مدى مساهمة فكره في حل مشاكل العمل الإسلامي، حسب الأولويات التي يحتاجها العمل الإسلامي في هذا العصر والوقت، أو على الأقل عدم وضع العراقيل والعقبات في مواجهة تحرك المسلمين، نحو إعادة بناء حياتهم الإسلامية على أسس صحيحة وسليمة.

٣- إن للعبقریات قيمة فنية عالية، لكنني لم أتعرض لهذا الجانب الفني، وقد قصدت سابقاً وحالياً، أن أبحث في قيمتها الفكرية، وعن الهدف من كتابتها.

والآن بعد هذا التذكير أنتقل إلى ما كتبه الدكتور جابر عن تقويمي للعبقریات.

نقد الدكتور جابر لكتابي:

قال الدكتور جابر قميحة: «وفي نطاق المنهج أيضاً نقرأ أغرب نقد أو اتهام، وجه إلى العبقریات، أو بتعبير أدق إلى العقاد نفسه، وخلاصته أنه لم يكتب هذه العبقریات إلا ليحارب بها تيار المد

الدكتور جابر قمحية يجانب الحقيقة في وصف نقدي للعقاد بأنه غريب

العوامل الاقتصادية، وقد آمن العقاد بأن مسيرة التاريخ تؤكد على الذات، وتنتقل بالفرد من الإهمال إلى الوضوح، ومن الفراغ إلى الامتلاء، ومن عدم المسؤولية إلى التبعات الثقيلة، ومن غموض الشخصية إلى وضوحها، ويقس العقاد رقي الأفراد والمجتمعات باحتمال التبعات، ويرى أن القدرة على تحمل التبعات ترتبط بالذات المنفردة التي تحس بشخصيتها^(٤٣).

الثاني: الديمقراطية:

والحقيقة إن إيمان العقاد بالديمقراطية إيمان مطلق، ومثله الأعلى الديمقراطية الإنجليزوية. وقد وضع ذلك في فصلين كتبهما في كتاب «الحكم المطلق في القرن العشرين» ثم نقلهما إلى كتاب: «هتلر في الميزان» وهما: «هل فشلت الديمقراطية؟»، لم تفشل الديمقراطية».

يوضح في الفصل الأول تاريخ نشوء الحكم الديمقراطي، ومناسبته لكل الشعوب، ويرى أن مساوئ الديمقراطية لا يمكن أن تقارن بكل مساوئ الأنظمة السابقة، ثم يؤكد العقاد في الفصل الثاني «لم تفشل الديمقراطية» أن الديمقراطية لم تفشل وأن كل الآثار تدل على نجاحها.

ثم يقارن في فصل ثل بين النازية والديمقراطية في مجالات متعددة منها: التقدم، والأخلاق، وحل المشكلات، والنظام، والصحة والتربية، ثم يمتدح بريطانيا في الفصل الثاني وهو «قضية الغد». ويعتقد أن معسكرها نموذج صغير لعالم التعاون على تحقيق المشاركة الدنيوية في غير تعطيل للسيادة القومية، ويدعو مصر إلى أن تقف إلى جانب الحلفاء وإلى جانب الديمقراطية الإنكليزية في الحرب العالمية الثانية.

والحقيقة إن إيمان العقاد بالنظام الديمقراطي قديم وليس جديداً، ويعود إلى ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول، والتي اشترك فيها العقاد نفسه، والتي رفعت شعارات الدستور والبرلمان والحريات والأحزاب.

وقد قرب سعد زغلول أثناء الثورة وبعدها، وقد التزم العقاد صف سعد مدافعاً عنه، ومهاجماً لخصومه، وأثمرت الثورة فكان الدستور عام ١٩٢٣، وكان البرلمان، ووصل العقاد نائباً إلى البرلمان الذي ترأسه سعد زغلول عام ١٩٢٦.

والحقيقة أن موقف العقاد من النظام الديمقراطي لم يقف عند حدود الإيمان والاعتقاد، والمساهمة في مؤسساته، والمنافعة عنه والدعوة إليه، بل أدى إلى التضحية في سبيله، فقد عطلت وزارة إسماعيل صدقي الدستور عام ١٩٣٠، فشن العقاد عليها حملة

محكماً بين الظاهر والباطن، ويدل على ذلك حالة النفاق التي يجتهد المناق في فيها أن يخفي باطنه، ويظهر شيئاً آخر، ومع ذلك فإن هناك بعض التصرفات ترشح لتدل على الحقيقة الباطنة، التي يجتهد المناق في إخفائها، ومن هذه التصرفات وأبرزها كسله في أداء الصلاة، ولحنه في القول، وكرهه للنفاق، وذكره القليل لله تعالى، قال تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ (النساء: ١٤٢) ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ (محمد: ٣٠) ﴿وما منعهم أن نقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون﴾ (التوبة: ٥٤) الخ....

أما النية بمعنى الصدق والكذب في فعل واحد محدد في لحظة قصيرة، فذلك ما يمكن أن يخفى لشيء يسير من الوقت، وهو ما قصده الرسول ﷺ من حديثه مع أسامة بن زيد عندما قتل أسامة بن زيد رضي الله عنه الرجل الذي نطق الشهادة، وعلل أسامة بن زيد رضي الله عنه تصرفه بأنه كان يرى أن الرجل لم يفعل صادقاً، إنما مخافة السلاح فقال له الرسول ﷺ: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا»^(٤٢).

صحيح أنه في تلك اللحظة لا يستطيع أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يجزم بكذب الرجل الذي أعلن إسلامه، والاحتمال أن إردان بالنسبة له، فإما أن يكون صادقاً في إعلان الإسلام، وإما أن يكون كاذباً فنيته في تلك اللحظة خافية، ولكن هذه النية الباطنة كانت ستكشف لو أنه عاش بعد ذلك بوقت قصير، وستقوم تصرفات تؤكد أحد التوجهين الباطنين: فإن كان صادقاً في إيمانه، فمعنى ذلك أنه سيؤدي الصلوات المفروضة، ويلتزم بشعائر الإسلام، ويتبعد عن المنهيات والمحرمات، وإن كان كاذباً في دعواه فمعنى ذلك أنه لن يلتزم بأركان الإسلام وسيبقى معظماً للأصنام، وسيصرف تصرفات مناقضة لما يفرضه الإسلام ويتطلبه.

والآن بعد هذه المقدمة، التي آمل أن تساعدني في توضيح ما أريد أن أقوله عن العقاد، أسأل: ما أبرز قناعات العقاد؟ وعلام تدور؟ وما جوهر تفكيره؟ وبماذا يؤمن؟

قناعات العقاد:

يؤمن العقاد بالنظام الديمقراطي الذي يتجلى في أمرين: الفرد والديمقراطية:

الأول: الفرد:

يؤمن العقاد بالفرد، ويرى أن الذاتية هي الغاية من الرقي، ويعتبر العقاد نفسه وجودياً طالما أن الوجودية تقدس الإنسان المستقل، ويمتدح مذهب الحريين لأنه يدعم الحرية الفردية الناتجة عن التأكيد على الذات، ويطلب حماية الفرد من طغيان الجماعة، وندد العقاد بالحكومات الجماعية التي تخيف الفرد وتسحق حريته، وفند حجج الديكتاتوريات والديكتاتوريين، وحارب الأفكار الجماعية كالشيوعية والنازية والفاشية إيماناً بقيمة الفرد، واعتقاداً بضرورة الحرية له، ودعماً لتحقيق وجوده، ودافع عن الفرد أمام

لماذا تميز العقاد بشكل مطلق لديمقراطية الغرب واستعداده للتضحية في سبيلها؟

يتعقب العدو جنساً من ألد الأعداء لجنسه، فلا يسره شيء كما يسره أن يرجع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب، وذم الحميد وتسجيل الذم المريع^(٦).

أصبح أن هناك اجترأ على عظمائنا؟ أصبح أن هناك من اجترأ على محمد ﷺ في مصر عام ١٩٤٢؟ أصبح أن هناك من حقر أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم؟ الحقيقة: لا، وعلى العكس من ذلك فإن كل من كان يجترأ من قريب أو من بعيد على أية قيمة من قيم الدين الإسلامي، أو أي عظيم من عظماء التاريخ الإسلامي كان يلقي جزاءه العادل من شعب مصر المسلم، كما حدث مع علي عبدالرزاق عندما ألف (الإسلام وأصول الحكم) عام ١٩٢٣، وطمح حسين عندما ألف (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦، ولم يتعرضا فيها لشخصيات إسلامية، إنما شككا في بعض الحقائق الدينية، فقام العالم الإسلامي آنذاك ولم يقعد، وكتبت عشرات الردود التي تبين خطأ رأييهما، ومنافاتها للحقائق الشرعية والدينية، وبعده عن العلم والموضوعية، وكانت النتيجة تعرضهما للمحاكمة، وإعدام الكتابين وتجريدتهما من شهادتهما الأزهرية وربتهما العلمية.

إذن لم يجترأ أحد على عظيم من عظماء أمتنا، لكن الحقيقة أن جماهير مصر المسلمة اجترأت على النظام الديمقراطي الذي كان ألوبة بيد الإنجليز، وكان صنيعتها، وتطلعت إلى الإسلام كمنقذ لها بعد طول استعباد وإذلال وتبعية، وأرادت العودة إلى حكم الإسلام، بعد أن سئمت النظام الديمقراطي الذي زرعه الإنكليز في تربة مصر، ولم يحقق لها سيادة ولا كرامة ولا استقلالاً ولا إرادة، بل أفرز طبقة حاكمة فاسدة، مفتونة بالغرب وبقية ومبادئه وحضارته، وتريد هذه الطبقة أن تجعل مصر المسلمة قطعة من أوروبا، وتجرب شعب مصر المسلم إلى الولوع في كل المستنقعات التي أفرزتها حضارة أوروبا.

هذا هو الواقع الذي اجترأت عليه جماهير مصر المسلمة، وتمردت عليه، واستنكرته فتصدى لها العقاد محاولاً الرد على موقفها بأن حدثها عن العظمة والفرد، وأهميته في البناء كوجه آخر للدفاع عن الديمقراطية.

إذن عندما قلت إن هدف العقاد من كتابه العبقرية هو «محاربة تيار المد الإسلامي» لم أحكم على «نية خافية»، إنما حكمت على «عمل ظاهر» استمر لمدة عقدين، بعد أن ألف أول عبقرية له عام ١٩٤٢، وعندما نربط «العبقرية» بقناعات العقاد الفكرية وبواقع مصر الذي اهتز فيه النظام الديمقراطي آنذاك، نجد أنه من الطبيعي أن يستل العقاد قلمه للدفاع عما يؤمن به وهو «الفرد والديمقراطية» وهو ما ضحى في سبيله، ورهن كل حياته له.

قاسية، مما جعل الحكومة تقدمه إلى القضاء، الذي أصدر عليه حكماً بالسجن لمدة تسعة أشهر، كما أنه تعرض للاغتيال - عندما كان في زيارة للقدس - من قبل أحد المؤيدين لهتلر والنازية، كما أنه كان أول المهتدين بالإعدام فيما لو انتصر القائد الألماني «رومل» في معركة العلمين ودخل القاهرة؛ لأنه ألف كتاب (هتلر في الميزان) الذي هاجم فيه هتلر والنازية، ودافع فيه عن الديمقراطية الإنجليزية، والذي طبعت منه السفارة الإنجليزية آلاف النسخ ووزعتها في مختلف البلاد العربية.

والآن بعد أن عرفنا جانباً من باطن العقاد وإيمانه وقناعاته، ورأينا جانباً من مواقفه وأعماله الفكرية التي تنسجم مع ذلك الإيمان الباطن نسال: لماذا كتب العقاد عبقرياته؟

لماذا كتب العقاد عبقرياته؟

يجيب العقاد ذاته على هذا السؤال، فيذكر أنه كتبها دفاعاً عن «العظمة»، التي كانت تحتاج إلى رد اعتبار في عصره في وجه المتطاولين والمجترئين عليها بالتجريح، يقول في مقدمة «عبقرية محمد»:

«وإتاء العظمة حقها لازم في كل أونة وبين كل قبيل، ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى، لسبيين متقاربين، لا لسبب واحد، أحدهما أن العالم اليوم ما كان ملتفتاً إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة. ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق. معرض للجفوة والكنود.

والسبب الآخر أن الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا، بقدر حاجتهم إلى هدايتها. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين، الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة.. والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث.

ولقد جرى هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين، كما جرى على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين»^(٤).

وقال في مقدمة «عبقرية الصديق» بعد أن استعرض أسباب الغضب من العظماء في إساءة فهم الصراع بين رجال العلم والدين، وفي إساءة فهم الديمقراطية، وفي نظرة الشيوعية إلى الأبطال، قال بعد أن استعرض كل هذه الأسباب: «وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغضب من العظماء حتى صبح عندنا أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى «برء الاعتبار» في لغة القانون، فإن الإنسانية لا تعرف حقاً من الحقوق، إن لم تعرف حق عظمائها، وإن الإنسانية كلها ليست بشيء إن كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء»^(٥).

وقال أيضاً في مقدمة كتاب «عبقرية عثمان» مندداً بالمتطاولين على العظمة الإنسانية، والمصغرين من شأنها قال: «أما أعداء النوع الإنساني حقاً فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه، الملوثون لكل صفحة نقية من صفحته، العاكفون على هدم كل ما بناه في تاريخه الطويل، من قيم الأخلاق، وعقائد الخير والفلاح، الذين يعملون ما يعملونه إلا عدو مغير على الأرض، يتعقب بقايا أهلها، كما

وإلا بمحمد ﷺ.

ويمكن أن يكون ابن الخطاب رضي الله عنه عادلاً بغير الإسلام وبغير محمد ﷺ، ولكنه لن يكون فاروقاً إلا بالإسلام وبمحمد ﷺ^(٩).

الرد على المستشرقين:

يقول الدكتور قميحة: «ولست أدري بماذا سيحكم الكاتب على ما كتبه المستشرقون من مزاعم ومفتريات تصدى لها العقاد في عبقرياته، إذا حكمنا على هذه العبقريات بأنها حرب للمد الإسلامي وتشويه لعقيدة المسلم؟».

الحقيقة أن العقاد لم يرد على المستشرقين فقط في «العبقريات» بل تعرض لكثير من وجهات نظر الفلاسفة والمستشرقين في كتبه الأخرى مثل: «التفكير فريضة دينية». و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه». و«ما يقال عن الإسلام»، و«الفلسفة القرآنية».

ولا تناقض بين ما قلته في نهاية تقويمي للعبقريات وبين كتابته في الرد على المستشرقين، فأنا لم أقل كان العقاد «حرباً على الدين الإسلامي» بكلياته وجزئياته، بل قلت إن ما كتبه العقاد كان «حرباً للمد الإسلامي» ولبعض الحقائق التي يقوم عليها هذا المد، فكان العقاد يرد على المد الإسلامي ويرد على المستشرقين في الوقت نفسه حسب فهمه للإسلام، ولا تعارض بينهما.

والآن في ختام دراستي السريعة التي سمح بها المقام أقول: لعل استطعت في هذه العجالة أن أكون قد أزلت جانباً من «الغربة» عن نقدي لعبقريات العقاد، ورفدت تقويمي لها بجانب من «القوة» أقول: لعل استطعت...

الهوامش:

- (١) مجلة الأدب الإسلامي، العدد الأول (ص: ٤٠).
- (٢) انظر الحديث في سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون.
- (٣) انظر كتابي «الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم» الطبعة الثالثة، عام ١٩٧٧، (ص ١٢٩-١٣٣) حيث نقلت نصوصاً من كتبه ومقالاته تؤكد الحقائق التي ذكرتها في هذه الفقرات.
- (٤) مجموعة العبقريات (ص ١٧١).
- (٥) مجموعة العبقريات (ص ٣٢٧).
- (٦) مجموعة العبقريات (ص ٦٩٨).
- (٧) المدرسة الغربية التي تأثر بها العقاد هي مدرسة (لامبروز) الإيطالية، ونقل العقاد عنها قولاً: «إن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها، وهي علامات تتفق وتتفاضل، ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للبيئة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة، فيكون العبقرى طويلاً بانن الطول، أو قصيراً بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يكتلن اليدين. ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير اليهود في سائر الناس». انظر مجموعة العبقريات (ص ٤٨١)، وانظر كتابي «الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم» (ص ١٦٢).
- (٨) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.
- (٩) انظر كتابي الفكر الإسلامي المعاصر، (ص ١٦٤).

كتب العقاد عبقرياته دفاعاً عن العظمة التي كانت تحتاج - في رأيه - إلى رد اعتبار في وجه المتعاونين والمجترئين عليها

عوامل بناء «الفرد العظيم»:

يقول الدكتور قميحة أيضاً في نقده لكتابي: «إننا إذا استقرأنا التاريخ وجدنا أن «الجماعة العظيمة» ما وجدت إلا بوجود «العبقري المحرك العظيم» وهل انتصرت الأمة الإسلامية إلا بفضل القيادات الرشيدة من أمثال أبي بكر وعمر وخالد، وعصور انحسار المد الإسلامي، كان من الممكن أن تمتد وتستمر، لولا أن قبض الله للأمة «أفراداً عظاماً» من أمثال صلاح الدين وسيف الدين قطز وابن تيمية والعز بن عبد السلام».

إني لا أختلف مع الدكتور قميحة ولا مع العقاد في أن «الفرد العظيم» له دوره في «الجماعة العظيمة». وإن «الشخصيات العظيمة» على مدار التاريخ كان لها «دورها العظيم» في بناء الأمة الإسلامية ودفع مسيرتها، ولكن الخلاف مع العقاد ما الذي يبني الفرد العظيم؟ وما الذي يبني الجماعة العظيمة؟

العقاد يقول: إن الفرد العظيم ينشأ بفطرته وبموروثاته العصبية والفيزيولوجية عظيمًا. ويمكن أن تحدّد صفاته العبقرية من خلال ملاحظته الجسدية، وهو قد نهج هذا المنهج متأثراً ببعض المدارس الغربية^(٧) ومن هنا ركز في عبقرياته على هذه العوامل في إبراز عظمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال... رضي الله عنهم جميعاً.

علمنا الإسلام وعلمنا الرسول ﷺ أن المعدن له حقه في ارتقاء المسلم وتمييزه وعطائه، لذلك نحن نعي قول الرسول ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(٨)، لكننا نعتقد أن المعدن وحده لا يفسر شهافة العبقريات الإسلامية وعمق تأثيرها، وسلامة توجهها، وحجم الخير الذي نتج عن وجودها، بل أعتقد وأؤمن أن هناك عاملين آخرين كان لهما دور في وصول هذه الشخصيات إلى هذا المستوى من السمو ومن الشهافة، ومن عمق التأثير هما:

١- دين الإسلام الذي يناسب الفطرة البشرية؛ لأنه الدين الذي أنزله الله، الذي خلق الإنسان وقد قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

٢- صحبتهم لرسول الله ﷺ واقتداؤهم به، وتربيته وتوجيههم؛ لأنه خير من يقتدى به، وخير من يصاحب، وخير من يُربي.

وقد أنهيت دراستي لعبقريتي أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما بعبارة تلخص ما أقصده عن دور الإسلام وعن دور تربية الرسول ﷺ لصحابته رضي الله عنهم أنهيتها فقلت:

«يمكن أن يكون أبو بكر رضي الله عنه صادقاً بغير الإسلام وبغير محمد ﷺ، ولكنه لن يكون صديقاً إلا بالإسلام